الفصل الأول

المجتمع الاسلامى

العناصر السكانية :

- القبائل العربية .
- الأتراك .
- التركمان .
- الأكراد .

الطوائف المذهبية :

- الاسماعيلية .
- الدروز .
- النصيرية .

أولا ـ العناصر السكانية :

حفلت بلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر بعناصر سكانية عديدة متباينة قلما نجدها فى بلد آخر ، وذلك بسبب موقعها من ناحية وأهميتها الدينية من ناحية ثانية ، فضلا عن الظروف التاريخية التى مرت بها تلك البلاد فى ذلك الدور من ناحية ثالثة · ولعلنا لانغالى اذا قلنا ان تلك البلاد عاش فيها مزيج متباين من الاجناس ، مكونا بذلك مجتمعين اساسيين هما : المجتمع الاسلامى والمجتمع المسيحى (١) · ومما لاشك فيه ان المجتمع الاسلامى فى الشام كان يمثل السمة الغالبة على العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية ، فالبعض منه يرجع الى أصل عربى خالص ، والبعض الآخر انحدر من أصول غير عربية دانت بالاسلام منذ أمد بعيد ·

والواقع ان هجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام لم تتوقف عبر العصور القديمة ، وذلك لأسباب عديدة ، منها مزاولة النشاط التجارى ، ومنها الجفاف المتزايد لشبه الجزيرة بين عصر وآخر · وأخيرا ماكان يحدث من حروب بين مختلف قبائل شبه الجزيرة ، الأمر الذى دفع بعضها الى الهجرة الى بلاد الشام فى شكل موجات بشرية (٢) · ومن المعروف أن بلاد الشام ماهى الا امتداد لشبه الجزيرة العربية من ناحية الشمال ، ومن ثم حدثت هجرات للقبائل العربية نتيجة انتظام الفصول الاربعة · فالقبائل كانت تقضى فصل الشتاء فى الجزيرة العربية لاسيما فى نجد ، وفى فصل الربيع كانت القبائل تتحرك الى الشمال بحثا عن المراعى · وفى تقدمها تصل الى حدود الاقاليم المتحضرة مثل الشام (٣) · ومع موجة الفتوحات العربية فى صدر الاسلام ، اندفعت القبائل العربية وبطونها الى الشام ، حاملة معها الدماء العربية واللغة العربية والدين الاسلامى الى تلك البلاد ·

وقد انقسم العرب فى بلاد الشام الى حضر وبدو ، والحضر هم أهالى

---

(١) Rappert : Histoire de la Palestine. p. 87.

(٢) François Nau : Les Arabes Chrétiens. pp. 7—10.

(٣) Nau : op. cit. pp. 31—32.

المدن والقرى الشامية ، واشتغلوا بالنشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة • ومن أهم القبائل العربية التى استقرت فى بلاد الشام ، ويهمنا ذكرها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر :

١ ـ بنـــو كـــلاب :

رحل عدد كبير من تلك القبيلة الى الشام زمن الفتوحات الاسلامية ، وربما قبل ذلك ، ثم تدفقت اعداد منهم الى الشـــام ببداية عهد الخلافة العباسية ، الى أن كان تحركهم الكبير من أرض نجد فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، حيث شاركوا فى أحداث الشام (١) ، حتى نجحوا فى اقامة امارة لهم فى حلب ، بزعامة صالح بن مرداس امير بنى كلاب عام ٤١٤ هـ ، الذى استطاع انتزاعها من ايدى حكامها الفاطميين (٢) • ومن حســـن حظ بنى مرداس ، أن صادفت جهودهم فى حلب فترة ركود مرت بها الامبراطوريـة البيزنطية ، بعد وفاة امبراطورهـــا الشهير باسيـل الثانى عام ١٠٢٥ م وولاية سلسلة من الاباطرة الضعاف ، لم تمتد همتهم لمد سيطرتهم شمال الشام (٣) • وعلى الرغم من أن امراء بنى مرداس ، بذلوا جهدا كبيرا من أجل الحفـــاظ على نفوذهم فى حلب ، فانهم عجزوا ، لأنهم كانوا مهددين من ناحية الفاطميين ، كما كان لضعفهم اثر كبير فى عدم استقرار الامور فى ولايتهم ، وعلى الأخص منذ بداية النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، وقد عجلت هذه الحالة بزوال حكم المرداسيين فى حلب بعد أن ظلوا يحكمونها ما يقرب من سنتين عاما (٤) • هذا ولم يتيسر للفاطميين القضاء على سلطة بنى مرداس على الرغم من محاولاتهم المتكررة • وفى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) تعرضت حلب لهجوم السلاجقة وبعض امراء العرب ، فسار اليها مسلم بن قريش بن بدران العقيلى صاحب الموصل،

---

(١) بيشرف : تاريخ حلب ، ص ٢٧ ـ ص ٢٨ ،
محمد الشيخ : الأمارات العربية فى الشام ، ص ٨ •

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ ،
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ص ١٨٠ ،
جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى الشام ، ص ٥٥ •

(٣) Gibb: The Caliphale and the Arab States. p. 91.

(٤) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٥٧ •

واستولى عليها من المرداسيين عام ١٠٧٩ م(٤٧٣هـ) ثم أرسل الى ملك شاه سلطان السلاجقة ليقره عليها ، فأجاب السلطان طلبه ، وبذلك قضى على المرداسيين (١) • ومما عرف عن المرداسيين أنهم يتكلمون التركية ، ويركبون الأكاديش ، وهم رجال حروب ، من أشد القبائل العربية بأسا ، ولو انقادوا لأمير واحد لم يبق لاحد من العرب بهم طاقة (٢) •

٣ ـ بنـــو طيء :

أضحت القبائل العربية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشـــر الميلادى) سادة الموقف ببلاد الشام ، واستمرت صاحبة النفوذ حتى قيـام الدولة الفاطمية فى مصر ؛ ومن مصر انطلقت الدولة الفاطمية لتثبت أقدامها فى الشام ، فاصطدمت بالقبائل العربية هناك ، وفى القرن الرابع الهجرى حدث تغيير فى أماكن استقرار القبائل العربية ، منها انتقال بنى طيء المقيمين فى حمص الى فلسطين جنوب الشام ، فى الاقليم الواقع شرق نهر الاردن والاطراف الغربية لصحراء الشام (٣) •

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى ، حاول بنو طيء تكوين دولة فى فلسطين مستقلة عن الخلافة الفاطمية ، فثار زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح بالرملة عام ٩٩٨ م (٣٨٨ هـ) ، ولكن الفاطميين اخضعوا ثورته وعفوا عنه ، وفى عام ١٠٠٩ م (٤٠٠ هـ) زحف حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح الى الرملة ، واستولى عليها بعد أن قتل واليها من قبل الفاطميين (٤) ، غير أن الفاطميين لم يتوانوا عن قتال بنى الجراح ، فأرسلوا جيشا عام ١٠١٣ م (٤٠٤ هـ) استطاع ايقاع الهزيمة بالطائيين • ومنذ ذلك الوقت ، ضعف شأن بنى الجراح ، وتمكن الفاطميون من استرداد سيطرتهم على البقـاع الجنوبية من الشام (٥) •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ •

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ، جـ ٤ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢

(٣) Lammens : La Syrie Précis Historique, Vol. II PP. 9—16 and Gibb : op. cit. P. 89

(٤) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٦ ـ ص ٤٧ •

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة

ومن طيء انحدر آل ربيعة ، وهم بنو ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج ابن دغفل بن الجراح • وكان ظهور ربيعة فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى (١١٢٧ ـ ١١٤٦ م) صاحب الموصل ، وصارت له الزعامة على عرب الشام فى عهد طغتكين السلجوقى صاحب دمشق ، ووفد على السلطان نور الدين محمود فأكرمه وشاد بذكره (١) • وفى أيام الدولة الأيوبية ، ثم من بعدها دولة المماليك البحرية ، حاز البعض من آل ربيعة على مكانة وأبهة ، وصار لهم عند السلاطين «حرمة كبيرة وصيت عظيم» (٢) • وقد انقسم آل ربيعة الى ثلاثة افخاذ ، لكل منها امير يتزعمها ، والفخذ الأول (آل فضل) وديارهم ممتدة من حمص الى قلعة جعبر والرحبة فى جانب الفرات ؛ والفخذ الثانى من آل ربيعة (آل مرا) ومنازلهم حوران ؛ أما الفخذ الثالث من آل ربيعة (آل على) وديارهم غوطة دمشق (٣) •

٣ ـ بنـــو كلب :

يرجع نسب تلك القبيلة الى كلب بن وبرة بن ثعلبه بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة ، وكانوا قبل الاسلام ينزلون دومة الجندل وتبـــوك وأطراف الشام (٤) • وقبيلة كلب من القبائل التى أدت الى اضـــطراب الأوضاع السياسية بالشام فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، بغرض تحقيق استقلال ذاتى لها ، فاستقرت فى وسط الشام (٥) • وتحقيقا لهذه الغاية ، دخلت فى الحلف الذى دعى صالح بن مرداس امير بنى كلاب لعقده عام ١٠٢٤ م (٤١٥ هـ) ، كى يتحد زعماء القبائل العربية جميعـــا لاخراج الفاطميين من بلاد الشام ، وتقسيمها بينهم ، على أن يكون من حلب الى عانة على نهر الفرات (شمال الشام) لصالح بن مرداس ، ومن الرملة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ ،
الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ، ورقة ١٥٥ ب
(٢) الخالدى : المقصد الرفيع ، ورقة ١٥٦ أ •
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ ـ ص ٢١٠ ،
ابن خلدون : تاريخه ، القسم الرابع ، ص ٩٣٦ ـ ص ٩٣٩ •
(٤) القلشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦ •
(٥) Gibb : op. cit. Vol. 1 P. 87
عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ٦٠ ـ ص ٦١ •

الى حدود مصر (جنوب الشام) لحسان بن مفرج بن الجراح أمير الطائيين، ودمشق وما يحيط بها (وسط الشام) لسنان بن عليان امير الكلبيين (١) ولما رأى الفاطميون الخطر الذى يهدد نفوذهم من جراء ذلك الاتفاق ، جهزوا جيشا عام ٤٢٠ هـ ، لمحاربة هذه القوى المتحالفة ، وقد تمكن من الحاق الهزيمة بها عند طبرية ، وبذلك استرد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى من بلاد الشام (٢) ٠

٤ ـ بنـــو عمـــار :

حدث قبل أن تفقد الامارة المرداسية استقلالها بنحو عشر سنوات ، أن شهدت بلاد الشام قيام امارة عربية ، أسسها أمين الدولة أبو طالب بن عمار عام ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) فى مدينة طرابلس منسلخا بها عن طاعة الخلافة الفاطمية (٣) ٠ وكانت طرابلس قد دخلت فى أيدى الفاطميين ابتداء من سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) ، اذ تذكر المصادر صراحة أن كان يليها من قبلهم ريان الخادم (٤) ٠ ولمناعة طرابلس ، استطاعت أن تسلم من الغزوات البيزنطية ابتداء من الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى ، كما نجت من هجـــوم السلاجقة ، لتحتفظ باستقلالها (٥) ٠ وعندما طرق الصليبيون بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر ، وتداعت أمامهم قوات الأتراك السلاجقة ، فرحت الأسرات العربية بشمال الشام ، وأظهرت الاستعداد لعقد اتفاقات مـــع الصليبيين ، ومن بين تلك الأسر كانت أسرة بنى عمار فى طرابلس ؛ والواقع أن الصليبيين رحبوا بصداقة بنى عمار لما لذلك من بالغ الاهمية ، اذا وضعنا فى الحسبان ضرورة زحف الجيش الصليبى جنوبا (٦) ٠ على أن طرابلس

---

(١) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٧ ،
الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ١٥ ٠
(٢) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٧ ـ ص ٤٨ ٠
(٣) محمد الشيخ : نفس المرجع ، ص ١١٤ ٠
(٤) ابن الفرات : تاريخه ، جـ ٨ ، ص ٧٧ ،
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠ ٠
(٥) محمد الشيخ : المرجع السابق ، ص ١١٦ ـ ص ١١٧ ٠
(٦) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « ابن عمار » ٠

تعرضت للهجوم الصليبى عام ١١٠٩ م ، الذى استطاع أن يفتح أبوابها ، ويعيث فيها فسادا ونهبا ٠

٥ ـ بنـــو منقـــذ :

قامت بشيزر امارة عربية عام ١٠٨١ م ، انشأها على بن منقذ ، الذى اشترى المدينة وقلعتها فى تلك السنة (١) ٠ وقد ظلت شيزر محتفظة باستقلالها وسط الاتراك السلاجقة ، لاسيما بعد وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ م ، وحدوث النزاع بين ورثته ، اذ قام النزاع بين أخيه تتش وابنه باركياروق ، وبعد انهزام تتش اقتسم ولداه سوريا ، فاخذ رضوان حلب واخذ دقاق دمشق (٢) وعندما اتى الصليبيون الى الشام ، كان من الطبيعى ان يرسم بنو منقذ لأنفسهم سياسة تمكنهم من الاحتفاظ بنفوذهم فى المدينة والقلعة ، ولهـــذا وقفوا موقف الحياد من الجيش الصليبى الزاحف ٠ وقد رحب الصليبيـــون بحياد بنى منقذ كى يطمئنوا الى سلامة الجيش الزاحف جنوبا (٣) ٠ وطالما تردد ذكر امراء شيزر فى احداث شمال الشام ، حتى انقرضت الاسرة بعد تدمير شيزر بسبب الزلزال الذى حدث عام ١١٥٧ م (٤) ٠ ومن هذه الأسرة ، أسامة بن منقذ مؤلف كتاب « الاعتبار » الذى وصف فيه الحياة الاجتماعية بالشام ، فى فترة من فترات الحروب الصليبية ٠

٦ ـ التنوخيـــون :

يرجع نسب التنوخيين الى أصل قحطانى ، ونزلوا قبل الاسلام فى شمالى الشام ، وقد سموا تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام ، فالتتنخ والتنوخ المقام (٥) ٠ ويرى لامنس (٦) ان قبائل تنوخ وبنى حمرة وبنى بحتر ، انتشرت فى لبنان الوسطى ، قادمة من شمال سوريا ، فى فترة من

---

(١) الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ١٥ ٠
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « شيزر »
(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٧٧ ٠
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « شيزر »
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣١٨ ،
محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ١ ، ص ٦١ ، ص ٦٢ ٠
(٦) La Syrie Précis Historique, Vol. II P. 9

المستحيل تحديدها تاريخيا ، ولكنها على أية حال قبل مجيء الفرنجة الى الشـــام ٠

وفى عهد الدولة النورية ، تقرب كرامة بن بحتر بن على بن ابراهيم التنوخى من السلطان نور الدين محمود ، فأقطعه عام ١١٦٠ م (٥٥٦ هـ) الغرب وما يتبعه من قرى ، فسمى لذلك امير الغرب (١) ٠ ويبدو ان ازدياد قوة المسلمين باستيلاء نور الدين محمود على دمشق عام ١١٥٤ م ، جعل كرامة بن بحتر يترك الفرنجة وينضم الى نور الدين ٠ وتلى ذلك ان بعد الأمير كرامة عن حياة البداوة ، وفضل الاستقرار بدلا من التنقل والترحال ، وبنى له حصنا بسر حمور (٢) ، وهى قرية قريبة من عرامون ٠ كما اقطع صلاح الدين الأيوبى أيام فتح بيروت سنة ١١٨٧م (٥٨٣ هـ) املاك كرامة ابن بحتر ، لابنه حجى مكافأة له من أجل خدمته ومناهضته للفرنجة (٣) ٠ وأقر الأفضل بن صلاح الدين أمراء الغرب على مابأيديهم ، نظرا لحاجته الى عونهم فى صراعه ضد أخيه العزيز عثمان، اذ رد عام ١١٩٦م على كتاب ورد اليه من حجى (جمال الدين حجى بن كرامة) الداخل فى طاعته ، وحثه فى هذا الرد على الجهاد ، ووافق فى النهاية على اقطاعه الغرب جميعه (٤) ٠ وبعد غزوة هولاكو قائد جيش التتار لبلاد الشام ، توجه جمال الدين حجى الى دمشق حيث يقيم كتبغا نائب هولاكو فى الشام ، فاجتمع به ، وأظهر الطاعة للتتار، فكتبوا له منشـــورا عام ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) باقراره على مابيـــده من اقطاعات (٥) ٠ ويتضح من هذا ان امراء الغرب كانوا مع من غلب ، فقـــد ظلوا يتارجحون بين الولاء للصليبيين حينا وللمسلمين احيانا ، كما تارجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من ايوبيين وتتار من ناحية أخرى ؛ وبمعنى آخر لافرق عندهم بين مسلم أو صليبى أو مغولى (٦) ٠

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٠ ،
صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٤٨ ٠
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٠ ٠
(٣) جورج يني : تاريخ سوريا ، ص ٤٣٨ ،
ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٤٠ ، ص ٣٨٦ ٠
(٤) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٢ ٠
(٥) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٦ ـ ص٥٧ ٠
(٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٠٩ ٠

ولهم منشور من صاحب صيدا الفرنجي Arnaud de Sagette عـــام ١٢٥٥ م (٦٥٤ هـ) ، يستفاد منه ومن غيره حسن العلاقات التى كانت قائمة بين الصليبيين المستقرين بالســـاحل والامراء البحتريين المسلمين أصحاب جبال لبنان المشرفة على تلك السواحل (١) • ويبدو أن الظاهر بيبرس غضب عليهم بسبب تقلبهم ، فاعتقل بعض زعمائهم فى مصر ، ورفض أن يطلق سراحهم الا بعد الانتهاء من حروبه ، وبالفعل ما ان تم له فتـــح أنطاكيه حتى أطلق سراحهم • وبالرغم من ذلك ظل بيبرس يتشكك فى ولاء البحتريين ، حتى أرسل ضدهم حملة قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم فى عنف ، وبعد بيبرس لجأ السلطان قلاوون الى اضطهاد البحتريين ، فصادر اقطاعاتهم ووزعها على حماية طرابلس من المماليك ؛ وســـرعان ما أدرك البحتريون عاقبة عنادهم ، فعادوا الى الولاء لدولة المماليك ، وعندئذ ردت اليهم اقطاعاتهم على عهد الأشرف خليل بن قلاوون عام ١٢٩١ م (٢) • ومما يدل على ولائهم ايضا ، انه عندما فتحت بيروت ســـنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) على يد السلطان الاشـــرف خليل ، كان امراء الغرب أول من دخلها (٣) • ومن المعروف أن أمراء الغرب من بنى تنوخ تولوا أعمال الدرك بلبنان ، فضلا عن التجسس على أخبار العدو (٤) •

وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الأرسلانيون ، ومركزهم قـــرب بيروت ، وكانوا موالين لدولة المماليك ، واشتهروا بمواقفهم ضد التتـــار والصليبيين • ففى حروب التتار ـ وخاصة فى موقعة عين جالوت فى سبتمبر ١٢٦٠ م ـ كان الأمير زين الدين صالح الارسلانى يقود رجاله بجـــانب المماليك حتى تم لهم النصر (٥) •

٧ ـ الشـــــهابيون :

عندما دبت الوحشة بين صلاح الدين الأيوبى ونور الدين محمود ،

---

(١) لويس شيخو : بيروت تاريخها وآثارها ، ص ٦٠ ـ ص ٦١ •
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٠٩ •
(٣) لويس شيخو : المرجع السابق ، ص ٧١ •
(٤) ابراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٨ •
(٥) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١٠ •
محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٥ •

جهز الأخير الجيوش فى حوران للتوجه بها الى مصر والقضاء على صلاح الدين ؛ فما كان من الامير منقذ الشهابى الا ان جمع الشهابيين ، ورحل بهم من حوران الى وادى التيم عام ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) ، حتى لايتدخلوا فى أى نزاع يشب بين الطرفين ، « لما لهم عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة (١) . ويبدو أن صلاح الدين كان قد اتصل بالشهابيين . واستمالهم اليه ، وطلب منهم اعاقة ارسال الحملة اذا فكر نور الدين فى توجيهها الى مصر ، فلما رأوا أنهم لاقبل لهم بنور الدين ، رأوا من الأصوب شد الرحال الى وادى التيم ارضاء لصلاح الدين . ولما سمع نور الدين بما ازمع عليه الشهابيون ، استفسر عن الأسباب التى أدت بهم الى ذلك ، فتعللوا بان بلادهم أضحت خرابا . وعلى أية حال ، فانهم نزلوا بوادى التيم فى خمسة عشر ألفا ، ولما احس الصليبيون بهم أرسل لهم صاحب قلعة الشقيف جيشا ضخما التقى بهم فى حاصبيا ، بيد انهم انزلوا به هزيمة منكرة ، الأمر الذى جعلهم يثبتون أقدامهم فى وادى التيم (٢) . وقد اشترك الشهابيون بنجاح فى قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة اثناء اغاراتهم على بلاد الشام فى عهد السلطان المنصور قلاوون عام ١٢٨١ م . وقد حالف الشهابيون بنى معن وأصهروا اليهم (٣) .

٨ ـ المعنيون :

يرجع المعنيون فى اصلهم الى الامير معن ، الذى ظهر فى لبنان على عهد الخليفة العباسى المسترشد (١١١٨ ـ ١١٣٥ م) ، وتوفى عام ١١٤٩ م فى عهد السلطان نور الدين محمود (٤) . وفى عام ١١٢٠ م (٥١٤ هـ) جمع الامير معن أهله وعشيرته ، مغادرا سهل البقاع فى لبنان ، ونزل بهم فى جبل الشوف ، فى الجزء الجنوبى من غرب لبنان ، المطل على السهل الساحلى

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ص ٤٠ ـ ص ٤١ .
محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ١٣ .
(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٤١ .
(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١٠ ،
(٤) Hitti : The Origins of the Druze People. p. 5

بين بيروت وصيدا ، وكان ذلك الجبل خاليا من السكان ؛ واتصل الامير معن بالامير بحتر التنوخى أمير الغرب اذ ذلك ، وتقرب اليه فى مودة (١) • وبدلا من حياة التنقل والترحال ، أثر المعنيون حياة الاستقرار ، مما جعل الامير معن يبنى المنازل والديار ؛ وقد حارب المعنيون الى جانب المسلمين ضد الصليبيين ، كما كانوا الملجأ الامين لكل من فر أمام الفرنجة (٢) • وعندما وفد الشهابيون الى وادى التيم عام ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) ، جاء اليهم الامير يونس بن معن مهنئا اياهم (٣) • وقد حالف المعنيون أقرباءهم التنوخيون فى الغرب والشهابيون فى وادى التيم •

والى جانب تلك القبائل الهامة ، سكنت قبائل عربية أخرى عديدة فى أنحاء متفرقة من بلاد الشام ، ترجع فى أصولها الى القحطانيين والعدنانيين• ومن القبائل القحطانية التى نزحت الى الشام : جرم وهم بنو ثعلبة بن عمرو بن الغوث من طىء ومنازلهم بلاد غزة والداروم (٤) ؛ وجذام التى تفرع منها بنو صخر بالكرك ، وبنو مهدى بالبلقاء ، وبنو عقبة وبنو زهير بالشوبك وبنو سعيد بصرخد وحوران (٥) ، وزبيد التى استقرت فى صرخد ودمشق وحوران (٦) • ومن القبائل العدنانية التى سكنت الشام : بنو خالد فى حمص الذين يدعون النسب الى خالد بن الوليد ، على الرغم من اجمـــاع النسابة على انقراض عقبه (٧) ؛ وجماعة من ولد جعفر بن أبى طالب بوادى بنى زيد وبصرخد (٨) •

هذا عن الحضر ، أما البدو فقد عاشوا حياة التنقل والترحال ، ففى

---

(١) Hitti : op. cit. PP. 5—6

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٣٠٢ •

(٣) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٤١ •

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٢٢ •

(٥) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٣٤ ،
الخالدى : المقصد الرفيع المنشأ ، ورقة ١٥٦ ب •

(٦) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ ــ ص ٢١٤ •

(٧) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٤ •
الخالدى : المقصد الرفيع ، ورقة ١٥٧ أ •

(٨) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ــ ص ٣٦٠ •

فصل الشتاء يتحركون ناحية الشرق ، بحثا عن المناخ المعتدل الملائم والمراعى الوفيرة (١) • أما فى الصيف فانهم يعودون مرة أخرى الى الغرب ، لاسيما جبال لبنان ، التى تزخر بالرعاة المتجولين من مكان الى آخر سعيا وراء العشب والكلا والماء (٢) • وأولئك البدو ، الفوا حياة البداوة واستمرارها ، اذ جعلتهم بمنأى عن كل سلطة • وقد حاول سلاطين المماليك ادخالهم ــ ببلاد الشام ــ فى النظام الاقطاعى ، فأضفوا على زعمائهم القاب الامارة ، واقطعوهم الاقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة ، وحراسة الطرق والدروب الصحراوية ، وتقديم الرجال وقت الحرب ، ولكنهم أنفوا من ذلك النوع من التنظيمات التى تفقدهم الكثير من حريتهم (٣) •

فاذا تركنا جانب العنصر العربى ، وجدنا ان المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ضم عناصر أخرى عربية تركت بصماتها واضحة فى تشكيل هذا المجتمع ، أهمها :

١ ــ الأتـــراك :

ترجع الهجرات الاولى لقبائل الاتراك من أقصى التركستان فى خلال القرون الثانى والثالث والرابع الهجرية ، ميممة وجهها شطر الغرب ، فاستقرت فى اقليمى ما وراء النهر وخراسان • ولقد هاجرت القبائل التركية تحت ضغط ظروف قاهرة ، كغلبة احداها على الأخرى ، أو سوء الحالة الاقتصادية، أو حدوث قحط يستحيل معه استمرار الحياة• وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، بدأ الأتراك ولا سيما السلاجقة يستقرون فى بلاد ما وراء النهر ، ومن المعروف أن سمات البداوة قد غلبت عليهم ، فمالوا الى التنقل والارتحال طلبا للرزق ، وسعيا وراء مواطن العشب والكلأ ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة فى أعماق نفوسهم ، مما اثر فى دولتهم ، وفى حاضرهم ومستقبلهم تأثيرا بالغا (٤) • وأثرت البداوة فى تعصب الاتراك الشديد للاسلام بعد اعتناقهم له ، وميلهم الشديد الى أهل السنة والجماعة

---

(١) Les Guides Bleus sous la direction de Marcel. Monarche p. xxxIx.

(٢) Loc. cit.
Robin Fedden : The journal of a voyage. p. 1—6

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٠٥ ــ ص ٢٠٦ •

(٤) عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٦ ــ ص ١٧ •

بعد اتباعهم المذهب السنى (١) • ومن المؤكد أن قيام دولة الاتراك السلاجقة عام ١٠٣٧ م (٤٢٩ هـ) ، واعتراف الخليفة العباسى بها ، يعتبر حدثا جديدا فى تاريخ ايران والعالم الاسلامى ، لأن تلك الدولة سرعان ما لعبت دورا رئيسيا فى احداث الدولة الاسلامية ، ولم تلبث أن سيطرت على جانب كبير من ممتلكات الدولة البيزنطية والمناطق المجاورةلايران (٢)• ويعتبر « طغرل » الذى توفى عام ١٠٦٣ م (٤٥٥هـ) المؤسس الحقيقى لدولة الاتراك السلاجقة فى ايران والعراق ، فهو الذى اظهرها ، وجعل السلاجقة من بعده يشرفون على بلاد الروم (٣) ، وسواحل البحر المتوسط • وفى الشام ألف الترك الأرستقراطية الاقطاعية ، وهى فئة قليلة العدد متناثرة ، لم تتغلب على الشام الا قبل مجىء الصليبيين بوقت قصير (٤) • ويمكن القول أن الأتراك فى الشام لم يكونوا كتلة واحدة ووسطا واحدا ، فنزولهم فى جزء صغير من شمال الشام ، جعل من مدينة حلب حدا بين البلاد العربية والتركية اذ فى شمال تلك المدينة يقل المتكلمون باللغة العربية ، وتصير البلاد الى التركية أقرب (٤) • وخدم الأتراك فى جيش صلاح الدين ضد الصليبيين ، وكان يفضل عنصرهم ـ هم والتركمان والأكراد ـ ، لما اعتادوه من عيشة التقشف والخشونة ، والقدرة على احتمال الأسفار والقتال (٦) •

٢ ـ التركمـــان :

التركمان أصلهم قبيلة من الأتراك عاشوا فى المنطقة بين بحر الخزر ونهر جيجون ، ثم انتقلت جموع منهم غربا ليستقروا شرقى أسيا فى قونيه وقيصرية وسافوستا Savosta، بالاضافة الى شمالى بلاد الشام (٧) ، وهم من العناصر البعيدة عن السامية التى كونت أقلية ضئيلة وسط اغلبية من العرب فى شمال الشام (٨) • وقد تعددت الاراء الخاصة حول تفسير معنى

---

(١) عبد المنعم حسنين : المرجع السابق ، ص ٢١ •
(٢) عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٩ •
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ ـ ص ٤٥ •
(٤) Miller : Essays on the Latin orient. P. 527
(٥) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٨٢ •
(٦) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٢٨ ـ ص ٣٠ ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاتراك » •
(٧) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاتراك » •
(٨) Marco Polo : The Travels, P. 20
Les Guides Bleus, P. XLI

لفظ « تركمان » غير أنه بانتشار الاسلام بين كافة العناصر التركية وخاصة منذ القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، تغير مفهوم لفظ « تركمان » فصار يطلق على جميع الأتراك الذين أسلموا كلمة «ترك» ، أما « تركمان » فقد أطلق على أولئك المشتغلين بالرعى من ناحية ، والذين عاشوا عيشة بدوية من ناحية أخرى • ولكن ليس معنى ذلك أن التركمان انعزلوا انعزالا تاما عن حياة المدن والمشاركة فى أحداثها ، اذ استطاعوا تكوين دويلات صغيرة فى أنحاء الشرق الأدنى (١) •

وقد ظهر التركمان لأول مرة فى الشام فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى القرن الذى تلاه أضحوا قوة ، وازداد نفوذهم • ولهذا رأى عماد الدين زنكى الاستفادة منهم ، فقد نقل طائفة منهم تسمى التركمان الايوانية الى بلاد الشام ، وأسكنهم حلب ، وكلفهم بمحاربة الفرنجة ، على أن يكون لهم الحق فى الاستيلاء على كل أرض ، يستطيعوا انتزاعها من الفرنجة ؛ وبذلك نشروا السلام فى شمال الشام • وقد سار نور الدين محمود على سياسة أبيه ، فحرص على انزالهم منطقة الحدود بين املاكه وأملاك الصليبيين ، مما أدى الى أتساع الجهات التى نزلوا بها ، وكونوا اكثرية فيها • وفرارا من وجه التتار ، فرت أعداد كبيرة من التركمان من وسط آسيا الى الاناضول ، وهبط جانب كبير منهم فى ديار بكر ، كما استقدم البعض منهم الى الشام • أما فى القرن الثالث عشر ، وعلى عهد سلطنة المماليك ، انخرط التركمان فى جيوش الشام ، ووصل عددهم عام ١٢٧٦ م (٦٧٤ هـ) الى عشرين ألف جندى وثلاثين ألف فارس ، كانوا على أهبة الاستعداد للالتحاق بجيش السلطان الظاهر بيبرس •

ولم ينس التركمان أنهم بدو رحل ، فعاشوا عيشة البداوة ، متمسكين ببعض عاداتهم ، فكبيرهم كان حكمه نافذا على « قاصى التركمان ودانيهم ، وكلمته لاتخالف » (٢) • كما أدى تحمسهم البالغ للمذهب السنى ، الى كرههم

---

(١) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ١٠١ •

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٣٦ هـ

الشديد للمذهب الشيعى ، وبغضهم للشيعة ، وعزفوا عن الفلسفة أو الجدل فى أمور الدين (١) ويكاد التركمان يختصون بأعمال الدرك ، فبنو عساف التركمان ، مكلفون بالدرك من حدود أنطلياس على نهر الكلب الى مغارة الأسد بالشام ، فلم يسمحوا بعبور نهر الكلب الا لمن يحمل « ورقة جواز » من الوالى فى تلك الجهات أو من امراء الغرب من بنى تنوخ (٢) ٠

٣ ـ الأكـــراد :

سكن الأكراد منذ القدم ـ ابتداء من عام ٦٥٠ ق٠م ـ جبال ووهاد كردستان ، وهم من الشعوب الهندوأوروبية (٣) ٠ والواقع أن المؤرخين اختلفوا فى أصل الكرد ، فمنهم من ذكر أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان (٤) ومنهم من ذكر أنهم من قبائل العجم ؛ كما زعم الأكراد المروانية أنهم من نسل مروان بن الحكم ؛ وزعم بعض الأكراد الهكارية أنهم من ولد عتبة بن أبى سفيان بن حرب (٥) ٠ وكل ذلك محاولات من الأكراد للاتصال بالنسب العربى الصـــريح ٠

والأكراد قوم أشداء ، غالبهم أهل بادية وخشونة ، يقيمون فى الخيام ، وهم أقل قبولا للحضارة من الترك ، ومقامهم فى الغالب فى كردستان وأرمينيا واعالى العراق كالموصل وديار بكر (٦) ٠ وعاشوا فى الشام منذ القدم فى شكل جماعات وأقوام رحل ، كما ان البعض منهم سكن المدن أيضا ، ولا سيما الجهات الشمالية من الشام (٧) ٠

---

(١) أحمد أمين : ظهور الاسلام ، ج ١ ، ص ٦١ ـ ص ٦٢ ٠
(٢) ابراهيم طرخان النظم الاقطاعية ، ص ١٩٨ ٠
(٣) أمين زكى : خلاصة تاريخ الكرد ، ص ٦٠ ـ ص ٦٤ ٠
(٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ٠
(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ـ ص ٢٣٢ ،
السلوك ، ج ١ ، ص ٣ ـ ص ٤ ،
المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٨٨ ـ ص ٨٩ ٠
(٦) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ ،
ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٢٧٦ ٠
(٧) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠

على أن الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر فى الاسلام الا على عهد الدولـــة الأيوبية ، ومؤسسها صلاح الدين الأيوبى (١) ، الذى لم يكن من أصل عربى، ولكنه من الاكراد الروادية أحد بطون الهذبانية من دوين فى آخر آذربيجان (٢) وارتفع شأن الاكراد فى أيام الدولة الأيوبية ، وتولوا الامارات والولايات فى مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان • وانتشرت عشائر كثيرة فى حلب وأطرافها ، وفى حارم والمنبج ، وعلى شاطىء نهر العاصى فى الجنوب الغربى لبلدة الشاغور ، وحمص ، وطرابلس (٣) • وكان معظم جيش صلاح الدين الأيوبى مؤلفا من كثير من العشائر الكردية والامراء الاكراد الذين اشتركوا فى حروبه وفتوحاته ، أمثال الاكراد الهكارية والمهرانية والحميدية والزرزارية(٤)، مما يدل على ان صلاح الدين كان متعصبا لبنى جنسه من الاكراد دون الأتراك والعـــرب •

وعقب سقوط بغداد ، وانقراض الخلافة العباسية ، اضطر العديد من الأكراد للفرار من وجه المغول ، والهجرة الى بلاد الشام ومصر (٥) • وانخرط البعض منهم فى جيوش المماليك فى الشام (٦) •

ومن الصفات الحميدة التى تحلى بها الكرد الشجاعة والنجدة (٧) ، فانهم اذا وعدوا أوفوا بعهدهم ، ومن شاركهم طعامهم صار آمنا ، لايتعرضون لـه بأذى (٨) • وهم بخلاف ذلك يتعصبون لبعضهم كما يفعل العرب أحيانا ، وبهم ميل الى الغدر فى بعض الأوقات (٩) • ومنهم من يعتنق الدين المسيحى على مذهب النساطرة واليعاقبة(١٠)• والأكراد تسودهم عوامل الشقاق والتفرقة،

---

(١) جورجى زيدان : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ •
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١ ــ ص ٤٢ • ،
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٣٩ •
(٣) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ٤٣٢ •
(٤) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ ــ ص ١٥٦ •
(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٦ •
(٦) Ziadeh W op. cit. p. 45
(٧) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٤٧ •
(٨) Lamb : The Crusades, p. 37
(٩) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٤٧ •
(١٠) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ •

وأسباب التخاذل والنفور ، مما أدى الى عدم توحيدهم ، ولم يستطيعوا ايجاد جبهة مشتركة للدفاع عن أنفسهم كشعب كردى واحد · ويعزو المسعودى سبب فظاظة الأكراد الى أنهم سكنوا الجبال التى يتميز سكانها بالجفاف والغلظة(١) ·

ثانيا ـ الطوائف المذهبيـــة :

قدر للعالم الاسلامى فى الشرق الأدنى ـ قبل مجىء الصليبيين ـ أن يظل منقسما على نفسه بين خلافتين ومذهبين متنافسين ، الخلافة العباسيـــة السنية ببغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية بالقاهرة · وكان هذا الوضـــع وما نجم عنه من تنافس حاد ، من الأسباب الرئيسية التى أدت الى اضعاف قوى المسلمين ·

وكان ولابد أن يظهر ببلاد الشام صدى للنزاع العنيف بين الخلافتين العباسية والفاطمية · فبعد ان استولى الفاطميون على مصر فى القرن العاشر الميلادى ، اخذوا يوجهون أنظارهم نحو بلاد الشام ، حتى تمكنوا فى نهايـــة الأمر من تثبيت أقدامهم على الأجزاء الساحلية بالشام · وصحب ذلك انتشار المذهب الشيعى ، وصارت بلاد الشام مسرحا للفتن والثورات بين السـنة والشيعة (٢) · وعلى الرغم من غلبة أنصار المذهب السنى فى دمشق وفلسطين، فان انصار المذهب الشيعى كانوا يكونون الأغلبية فى شمال الشام ، لاسيما فى حلب (٣) ·

ولم يقتصر الأمر ببلاد الشام على الصراع القائم بين المذهب السنى والمذهب الشيعى ، فمن الملاحظ أن الأخير شهد انقســـامات طائفية مثـــل الاسماعيلية والدروز والنصيرية ، وكان لها التأثير البالـــغ فى الحيـــاتين الاجتماعية والسياسية ببلاد الشـــام ·

١ ـ الاسماعيلية :

ينتمى أتباع تلك الطائفة الىاسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى عام ٧٦٢م

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ·

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. IV. pp. 302—309.

(٣) Cahen : La Syrie du Nord a l'époque des Croisodes. pp. 190—191.

(١٤٥ هـ) ، وقد نجح أتباع اسماعيل هذا فى أقامة الدولة الفاطمية فى مصر ، على أنه حدث بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر عام ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) ، أن قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالى باقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر ابنائه عن العرش ، وبايع أخاه الصغير الامير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله • وقد ادى هذا الى ظهور فريق يتشيع له بمصر ، بل دعا الى امامته بعض أهالى فارس من الاسماعيلية ، الذين كانوا يدعون الى انتقال الامامة من جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل وبنيه من بعده ؛ ويرجع نشاط هذه الطائفة فى بلاد الفرس الى العصر العباسى الأول ، منذ لجأ محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الى دماوند (قرب الرى) بسبب ماتعرض له العلويون من اضطهاد على يد العباسيين (١) •

ومن أهم المبادىء التى أقام الاسماعيلية عليها مذهبهم ، ايمانهم بان لكل عقيدة ظاهرا وباطنا (٢) ، ولكل تنزيل تأويل • وقد أدى بهم هذا الرأى الى تأويل احكام الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من انواع العبادة باطنا ، مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم الباطنية •

وكان أول ظهور للباطنية أو الاسماعيلية فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى ، فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد فى بلدة ساوة (بين الرى وهمذان) ، ولكنهم حبسوا ثم أطلق سراحهم • ثم انهم دعوا مؤذنا بأصبهان لاعتناق دعوتهم ، فلم يجبهم ، فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه ، فكان ذلك أول دم أراقته الباطنية (٣) • ولما بلغ خبر هذا الحادث نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ، أمر باحضار من يتهم بقتله ، فانحصرت التهمة فى نجار يسمى « طاهر » فقتل ومثل به فى الاسواق ، فكان أول قتيل من الباطنية • وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا : « قتل نجارا فقتلناه به » (٤)•

---

(١) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١١٣ ــ ص ١١٦ •
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٢ •
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٢ هـ •
(٤) الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجون ، ص ٦٢ ــ ص ٦٣ •
ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٢ هـ •

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه ، ازداد نفوذ الباطنية، حتى استولوا على اصبهان ، ونشروا بها دعوتهم فى عهد زعيمهم احمد بن عبد الملك بن عطاش • واخذوا يلحقون الأذى بمخالفيهم ، وامضوا فى سرقة اموالهم وتقتيلهم ، وأدخلوا الفزع بين الاهالى ؛ وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع ، من بينها قلعة أصبهان التى بناها السلطان ملكشاه السلجوقى وملكوا قلعة الموت (١) فى طبرستان بنواحى قزوين ، وقد قيل عن هذه القلعة أن ملكا من ملوك الديلم كان يكثر من الصيد ، فأرسل يوما عقابا وتبعه ، فرآه قد نزل على موضع تلك القلعة ، ووجده حصينا ، فامر ببناء قلعة عليه سماها الموت (بفتح الألف مع الهمزة وفتح اللام) (٢) ومعناها فى لغة الديلم « تعليم العقـــاب » •

وبعد وفاة احمد بن عبد الملك بن عطاش ، حل محله تلميذه الحســـن ابن الصباح الذى وصف بانه كان شهما عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر (٣) • وسرعان ما أشتد ساعد الحسن بن الصباح فى فارس ، وساعده على ذلك تفكك الدولة الاسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى (٤) وقد لجأ الحســـن ابن الصباح فى نشر دعوته الى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وامراء القلاع فى بلاد فارس ، والثانى محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعـة لتكون معاقل له ولأتباعه •

وقد عمل الحسن بن الصباح على تنظيم جماعته تنظيما دقيقا ليضمن لها البقاء • وكان الفدائيون أهم مراتب ذلك التنظيم ، فهم الأداة الفعالة التى قامت بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة فى الحروب الصليبية • لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريبهم تدريبا خاصا طويلا يتناول الجانب الروحى

---

(١) شيدت تلك القلعة على قمة صخرة شاهقة ، يكاد يتعذر ارتفاعها ، فى قلب جبال البرز على مسيرة يومين من شمالى الشمال الشرقى لقزوين • وقد استولى عليها حسن الصباح عام ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) وجعلها مقرا لطائفته •
(انظر دائرة المعارف الاسلامية) مقالة « قلعة الموت » •

(٢) ابن الوردى : تاريخه ، ص ٢٢ ــ ٢٣ •

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣ •

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٥١ ٥ ــ ص ٥٥٢ •

والمادى ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة (١) ٠

ويذكر الرحالة البندقى ماركوبولو فى القرن الثالث عشر ، أن شيخ الجبل علاء الدين ، شيد بالقرب من قلعة الموت ، فى وادى بين جبلين ، أكبر وأجمل حديقة تقع عليها العين ، تتوافر فيها كل الفواكه الموجودة فى العالم ، كما شيد أجمل القصور المزينة بالصور الجميلة ذات المنظر الجذاب ٠ وفضلا عن ذلك صنع قنوات احداها تفيض بالنبيذ ، والأخرى يجرى فيها اللبن ، والثالثة العسل ، والرابعة الماء ، وفى تلك القصور والحدائق فتيات حور عين رائعات الجمال ، لهن القدرة على العزف على الآلات الموسيقية والغناء والرقص ، وجعل الشيخ أتباعه يصدقون ان هذه المغريات هى الجنة (٢) ٠ ولا يسمح بدخول تلك الحديقة الا من وقع عليه اختيار شيخ الجبل ، ليكون فدائيا ٠ ويختار الشيخ الفتية الفداوية ، من الذين يتراوح سنهم ما بين الثانية عشرة والعشرين ، ولهم القدرة على حمل السلاح ٠ واعتاد الشيخ ان يجتمع بالبعض من الشباب ، ثم يامر باعطائهم جرعة مخدرة (لعلها الحشيش) توقعهم فى النوم سريعا ، ثم بعد ذلك يحملون الى الحديقة ، حتى اذا افاقوا اعتقدوا انهم صاروا فى الجنة فعلا ٠ فالفتيات الحسان تبقين مع الشباب تداعبه ، ويعزفن له ، ويغنين ، ويبعثن جوا من المرح الزائد ، بالاضافة الى قضاء الشباب وقتا ممتعا معهن ٠ وهكذا كان يحصل الشباب على ماتمناه ، واذا تركت له حرية الاختيار ، لايود مغادرة الجنة ، ولكنهم سرعان مايحملوا ـ وهم فى غيبوبة ـ الى دار شيخ الجبل ، وعندما يفيقون يسألهم عن المكان الذى أتوا منه ، فيرددون انهم كانوا فى الجنة ٠ أما الشباب الذى كان فى حضرة الشيخ ، والذين لم يروا تلك الجنة ، فبمجرد سماعهم ما ذكره الشباب، حتى تحرقهم الرغبة للذهاب الى تلك الجنة ، كما انهم فى سبيل الذهاب اليها ، على استعداد تام للموت ، وفى انتظار اليوم الذى يسمح لهم بذلك(٢)٠

ولهذا ، فعندما يرغب شيخ الجبل فى قتل شخصية كبيرة ، أو أى رجل

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٤ ص ٢٧١ ـ ص ٢٧٢ ٠
(٢) Marco Polo : The Travels, PP. 49—50
(٣) Marco Polo : op. cit. PP.50—51

آخر ، فانه كان يستخدم بعض الفداوية (الحشاشين) ، ويخبرهم ان القتل هو الوسيلة الوحيدة لدخولهم الجنة ، فاذا حدث ان ماتوا اثناء تأدية مهمتهم، فسيذهبون الى الجنة على الفور · وقد نفذ الفداوية تعاليم الشيخ وهم فى منتهى السعادة ، ومن ثم لايهرب من يرام التخلص منه من الموت · على أن الشيخ كان يرسل رجالا من قبله لمراقبة الفداوية الذين كلفوا بمهمة الاغتيال ، ويخبروه بمدى شجاعة كل منهم (١) ·

وحوالى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يدخلون الشام من الشمال الغربى ، كان الباطنية يدخلونها من الشمال الشرقى · وبمعنى آخر أخذ نشاط الباطنية الهدام يمتد الى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر · وينقسم الدور الذى قام به الاسماعيلية فى عصر الحروب الصليبية الى قسمين: اولهما مقاومة المذهب السنى ، وثانيهما مقاومة الصليبيين · ولم يفرق الاسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين والمسيحيين ، وانما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الجميع · وفى سبيل هذه المصالح الخاصة لم يتحرج زعماؤهم من محالفة الصليبيين حينا أو مهادنة المسلمين أحيانا (٢) ·

وفى حلب ضاقت الطائفة الاسماعيلية ذرعا بالأمر الذى اصدره نور الدين محمود عام ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) بابطال « حى على خير العمل » ولكنها لم تستطع القيام بعمل مضاد ، خوفا من نور الدين (٣) · وحاولوا عدة مرات قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه ، لولا أن الله أراد له النجاة ، ففى عام ١١٧٥م (٥٧١ هـ) وثب باطنى فى زى جندى على صلاح الدين خلال حصاره **لاعزاز** (٤) ، فضربه بسكين فجرحه ، ثم كرر المحاولة باطنى آخر ، ولكنه قتل مما جعل صلاح الدين يركب الى خيمته كالمذعور غير مصدق بنجاته (٥)· وفى العام التالى ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) توجه صلاح الدين الى قلعة مصياف

---

(١) Marco Polo : op. cit. PP. 51—52

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٥٥٣ ـ ص ٥٥٤ ·

(٣) أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥٧ ·

(٤) بليدة فيها قلعة شمالى حلب (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٦ ص ١٨٨)

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٧١ هـ ·
ابن كثير : البداية والنهاية ، ص ٢٩٣ ·

ـ أعظم حصون الاسماعيلية ـ بغرض قتالهم ، وضـــيق عليهم ، ولكن **سنان** (١) **مقدم الاسماعيلية أرسـل الى شهاب الدين الحارمى صاحب حماة** ، وهو خال صلاح الدين ، يسأله أن يسعى فى الصلح ، فاجابه صلاح الدين الى ذلك ، ورحل عنهم (٢) .

ويبدو أن الباطنية فى عدائها الشديد لأهل السنة ، تقربت الى الصليبيين بالشام ضد الايوبيين ثم المماليك ، وفى الوقت نفسه رأى الصليبيون فى الباطنية قوة يمكن الاعتماد عليها فى الحد من بطش سلاطين الايوبيين ثم المماليك من بعدهم . لذلك دأبت القوى الصليبية فى الشام على ارسال الهدايا الى الباطنية ، اتقاء لشرهم من ناحية ، وطمعـــا فى محالفتهم من ناحيـــة أخرى (٣) . وبالرغم من ذلك لم يسلم الفرنجة ببلاد الشام من حركة الاغتيالات التى قام بها الباطنية . ويقال ان ريتشارد قلب الأسد هو الوحيد الذى أبقى عليه الاسماعيلية ، وذلك لأنهم رغبوا فى تذليل العقبات أمام منافسه صلاح الدين (٤) .

أما عن الزيارة التى قام بها هنرى دى شامبينى لراشد الدين سنان زعيم الباطنية ببلاد الشام ، فقد حـــدث خلالها ان أشار سنان بيده لاثنين من الباطنية على قمة برج القلعة ، وفى التو سقطا من شاهق ، ثم تمزقا الى اشلاء . ونستشف من ذلك الحدث أن سنان أراد ان يوضح لصديقه الصليبى

---

(١) هو راشد الدين سنان بن سليمان صاحب الدعوة الباطنية ببلاد الشام ، أصله من البصرة ، وكان فى حصن الموت ، ولما أظهره من يقظة وذكاء ، ولى زعامة الباطنية فى الشـــام ، على عهد نور الدين محمود ابتداء من عام ١١٦٢ م وشـــغل هـذا المنصب مدة ثلاثين عاما ، لعب فيها دورا هاما فى أحـداث الشـــام الى أن توفى عام ٥٨٨ هـ .

أنظر : ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ص ١٢٠ ـ ص ١٢١ ، النجـوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٧ .
مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٩ .

(٢) سـعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ٨١ .

(٣) أبو الفـــدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٩ .

(٤) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ٢١٤ .

مدى تفانى أتباعه فى مرضاته ، والطاعة العمياء التى يبذلونها (١) · وعندما كان لويس التاسع ملك فرنسا فى عكا ، سعت طائفة الاسماعيلية لصداقته ، وكسب وده ، فجاءه وفد من الباطنية محملين بالهـــدايا ، منها حيوانات مصنوعة من الزجاج ، وخاتم شيخ الجبل وقميصه ، وكان القميص يرمز الى أن لويس كان من سنان بمنزلة قميص سنان من جسده قربا ، وقابل لويس هذه الهدايا بمثلها (٢)

واذا كان صلاح الدين الايوبى قد فشل فى اخضاع طائفة الاسماعيلية والقضاء عليها ، فان النهاية كانت على يد السلطان الظاهر بيبرس · فمن ناحية المبدأ لم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذ مذهبهم من ناحية ، ثم بسبب موقفهم المائع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى (٣) · ولهذا كان من المستحيل ان يقبل بيبرس وضعهم على ذلك النحو ببلاد الشام، ومن ثم وجه جهوده للقضاء عليهم · وأول مافعله ، بادر الى منعهم من دفع الجزية للصليبيين ولا سيما الاسبتارية فى حصن الاكراد ، وأجبرهم على دفعها له ، ويؤكد ذلك ما رواه المقريزى أن رسل الاسماعيلية وفدوا على الظاهر بيبرس عام ١٢٦٧ م (٦٦٥ هـ) ، ومعهم حملا من الذهب لينفق فى المجاهدين المسلمين (٤) ، ومما يدل على سيطرة بيبرس على الاسماعيلية ، أنه صار يتدخل فى تعيين البعض من زعمائهم ، وعزل البعض الآخر · ففى عام ١٢٦٩م (٦٦٨ هـ) قلد بيبرس زعامة الاسماعيلية لصارم الدين بن الرضى وعزل نجم الدين الشعرانى (٥) · وطوى بيبرس صفحة الاسماعيلية بالاستيلاء على حصونهم ببلاد الشام حصنا بعد آخر : العليقة (٦) ، والخوابى ، والمنيقة، والقدموس ، والكهف ، « وعفيت المنكرات منها ، وأظهرت شرائع الاسلام وشـــعائره (٧) ·

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٢٩

(٢) Hitti : Hist. of the Arabs T. III P. 517
Grousset : Histoire des Croisades. T. III P. 517

(٣) سعيد حسن عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١١ ·

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٣ ·

(٥) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٨٦ ـ ص ٥٨٧ ·

(٦) المقريزى : السلوك، ج ١ ص ٥٩٩ ، ص ٦٠٨ ·

(٧) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٥٢ ·

من كل ما تقدم نلمس الدور الكبير الذى لعبته طائفه الاسماعيلية على عصر الحروب الصليبية بالشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر • واذا كان المسلمون نظروا الى الاسماعيلية كزنادقة ملحدين وكفره ، الا أن التجربة المستفادة من دراستنا للطائفة ، أنها اعطت العالم صورة من الشجاعة التى وصلت الى حد التهور • وقد وصف المؤرخ الحسن بن عبد الله (١) شجاعة الفداوية قائلا : « وقد استخدم السلطان الظاهر بيبرس الفدائيين خـــلال حروبه مع الفرنجة والتتار ، وكذلك سيرهم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى عمليات فدائية أمضوها بنجاح ، باذلين أرواحهم » •

٢ ـ الـــدروز :

تأثر المذهب الشيعى بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ويرجع ذلك الى تأثير بعض الشيعة بالفلسفة اليونانية ، وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ ، ولهذا صار المذهب الشيعى فى عهد الفاطميين خليطا من الدين والفلسفة ، ونشأت بسبب ذلك مذاهب أخرى منها الدروز • وفى أوائل القرن الخامس الهجرى (القرن الحادى عشر الميلادى) ، وفد الى مصر دعاة من غلاة الشيعة الفرس ، جهروا بتأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى (٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م) وهم : حمزة بن على الزوزنى ، والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ومحمد بن اسماعيل الدرزى (٢) • وينسب الى محمد بن اسماعيل الدرزى أنه كتب رسالة ، قدمها الى ذلك الخليفة ، شرح فيها دعوته واصول مذهبه ، وأعلن فيها ربوبية الحاكم ، فقربه اليه وجعله محل رعايته وعطفه • وجاء فى تلك الرسالة أن روح آدم انتقلت الى على بن أبى طالب ، ومنه الى أسلاف الحاكم ، متقمصة من واحد الى آخر ، حتى انتهت الى الحاكم بأمر الله (٣) • والواقع ان الاعتقاد بالحلول (أى أن الله يتجسد) قديم العهد بين غلاة الشيعة ، وهو اعتقاد يحاول فيه اتباعه ان يسدوا الفجوة البعيدة ، التى

---

(١) آثار الأول ، ص ١٥٢ ـ ص ١٥٣ •

(٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ •
جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٦ ـ ص ٩٧ •

(٣) حنا أبى راشـــد : جبل الدروز مع صحيفة أعمال زعيمهم الحربى ســـلطان باشا الأطرش ، ص ٣٤ •

تفصل الانسان المحدود عن الله غير المحدود ، كوسيلة لاقامة علاقات شخصية انسانية مع ذات الله (١) • وليس هذا المعتقد الأساسى سوى استمرار للعقيدة الاسماعيلية أتباع الامام السابع اسماعيل المتوفى عام ٧٦٠ م (١٤٣ هـ) الذين يعرفون أيضا بالسبعية •

أثار اعلان محمد بن اسماعيل الدرزى ربوبية الحاكم فى الجامع الأزهر سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة ، فتوجهوا الى الحاكم ، وطالبوه بتسليمه ولكنه ما طلهم ، وسهل له طريق الفرار ، بعد أن طلب منه الخروج الى الشام ، ونشر الدعوة فى الجبال (٢) • وسرعان ما لقيت دعوته تربة صالحة فى وادى التيم عند سفل جبل الشيخ ، واستطاع ان يستميل اليه العديد من الانصار ، الذين أضحوا يعرفون باسم الدرزية • ومن العجيب ان الدروز لم يرضوا عن تلك التسمية ، لأنهم استنكروا دعوة الدرزى واحتقروه ، واتهموه بالكفر والالحاد ، وآثروا ان يسموا بالعقال أو «الموحدين» أى الذين يؤمنون بآله واحد ، وهو الاسم الذى ورد فى كتبهم المقدسة • وبعد سنتين قضاهما الدرزى فى الدعوة لتأليه الحاكم ، قتل عام ١٠٢٠ م (٤١٠ هـ) (٣) ومن جنوب لبنان ، أخذت الدعوة الدرزية فى الانتشار فى الجبال شمالا ، متحاشية الساحل والبقاع ، وانضمت الى طائفة الدروز قبائل عربية أو مستعربة مثل التنوخيين والمعنيين وآل أرسلان وآل جنبلاط واليزبكية (أسرة تلحوق) والنكدية ، الذين تزعموا ولازالوا الدروز (٤) • وعلى أية حال ، فان كثيرا من الاسس التى وضعها حمزة بن على الزوزنى وانصاره من دعاة الدرزية الأوائل لازال قائما الى اليوم ، من أهمها اتخاذ الدروز تقويما

---

(١) Gerard de Nerval : Voyage en Orient, P. 52

فيليب حتى : لبنان فى التاريخ •

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٨٨ •
جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧ •

(٣) مجهول المؤلف : الدروز ، ص ٢٣ •
حنا أبى راشد : المرجع السابق ، ص ٢٥ •
فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣١٥ •

(٤) محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ١٠ ـ ص ١٨ •
Hitti : op. cit. PP. 20—22

يؤرخون به حوادثهم ابتداء من عام ١٠١٧ م (٤٠٨ هـ) ، وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم (١) ٠

ولاتوجد لدى الدروز وثائق واضحة تتعلق باصلهم كشعب وطائفة ، ولا يقل أصلهم الأنثروبولوجى عن معتقداتهم الدينية وطقوسهم غموضا وابهاما ، فقد عاشوا حياة شبه مستقلة منعزلين فى معاقل جبال لبنان ، غافلين عن ازدهار العالم الذى يحيط بهم ، ويكاد العالم الخارجى لايعرفهم تماما ٠ وهم حتى اليوم لازالوا يعيشون فى مجتمعات اقطاعية قروية صغيرة ، خاضعة لسيطرة الشيوخ ، وهؤلاء خاضعين لأمراء ، والجميع ينظمهم شكل حكومة ثيوقراطية (دينية) (٢) ٠ ولا زال هذا التنظيم هو السمة المميزة للحياة الوطنية للدروز ٠

ولكى نصل الى ادراك شامل وعلمى لعقيدة الدروز ، تواجهنا صعوبات جمة ، ويرجع السبب فى ذلك الى ندرة المصادر من جهة ، والسرية التى يزاول الدروز بها طقوسهم واحتفالاتهم الدينية الغامضة من جهة أخرى ٠ حتى المخطوطات القليلة التى وقعت فى الأيدى لاتشفى الغليل ، لغلبة الصفة المجازية عليها ، فضلا عن عناية الدروز الفائقة فى عدم افشاء كتاباتهم المقدسة ٠ كذلك فانهم يؤمنون بمبدأ التقية ، أى من حق أى درزى اظهار غير مايبطنه ، اذا كان ذلك سيؤدى به الى الحصول على الأمان (٣) ٠ كل تلك الأمور متضامنة ، جعلت العقيدة الدينية للدروز لغزا بالغ الحيرة فى التاريخ ٠

وعلى أية حال ، فان من أهم خصائص الدعوة الدرزية ، اغلاق الباب بوجه كل طالب ، وحصرها فى الذين آمنوا ، فمن لم يؤمن بقى كذلك الى الابد ، ومن آمن فقد آمن بلاردة (٤) ٠ وبهذا قطعوا كل علاقة دينية مع غير أبناء مذهبهم ٠ وانقسم الدرزية الى طائفتين : الأولى طائفة الروحانيين ، أى الذين يلموا بأصول المذهب الدرزى ٠ وتنقسم هذه الطائفة الى ثلاثة أقسام رؤساء وعقلاء واجاويد ٠ والرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع

---

(١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ ٠

(٢) Hitti : op. cit. PP. 1—5

(٣) Hitti : op. cit. P. 24

(٤) حنا أبى راشد : الدروز ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ ٠

اسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الاســـرار الداخلية التى تتعلق بالتنظيم الداخلى للمذهب ، والاجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التى تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب (١) · أما الطائفة الثانية فهى طائفـــة الجسمانيين ، أى الذين لايبحثون فى الروحانيات ، بل يبحثون فى الامـور الدنيوية ، وتنقسم هذه الطائفة الى قسمين أمراء ، وجهـــال · والامراء الجسمانيون بيدهم مفاتيح الاسرار الخاصة ، والجهال أو العامة فهم الذين لايعرفون من أصول المذهب الا اسمه ، ويظل الفرد منهم فى نظر الطائفة الدرزية جاهلا ، حتى لو حصل على ارقى الشهادات العلمية ، ونال قسطا وافرا من الثقافة،ولا يجوز لطبقتى الجسمانيين الدخول فى مجالس طائفة الروحانيين · وهكذا يعيش الجاهل منهم درزيا ، ويموت درزيا ، ولا يعـــلم من أسرار الدرزية، سوى أنه ولد من أب درزى وأم درزية فقط(٢) · والنساءفى المجتمع الدرزى ينقسمن ايضا الى عاقلات وجاهلات ، لا فرق فى ذلك بين المرأة والرجل (٣) ·

وطبقا لتعاليم الدروز فهم الأن خلال فترة « غياب الحكيم « اى « فترة الاخفاء « (زمان الستر) ، ومن ثم لا بد ان تكون معتقداتهم وطقوسهم فى طى الكتمان ، ولا تذاع على الملأ · ويعبر الدروز عن أهدافهم فى كتبهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية ، كاسرار الماسونية ، وهناك بعض اصـــطلاحات تقليدية تتداولها كل جمعية سرية ، خوفا على أسرارها من الافتضاح (٤) · وللطائفة الدرزية مجالس خاصة ، يجتمع فيها جميع (العقال والأجاويد) اجتماعات سرية ، وهى أشبه بمحافل الماسون من حيث كتم الاســـرار ، والرموز ، ومن حيث التقاليد والطقوس ، ولا يمكن لغير العقـــال والأجاويد ارتياد هذه المجالس ولو تنكروا فى أزيائهم ، ذلك لان الزائر ، اذا لم يبح بكلمة السر ، لايستطيع الدخول (٥) · ولا يوجد مساجد بجبـــل الدروز ، فالدروز ليس لهم أمكنة معينة للعبادة ، بل لهم « خلوات » يجتمعون فيها من يوم الخميس الى الجمعة من كل أسبوع ·

---

(١) محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٨ ـ ص ٢٩ ·
حنـــا أبى راشـــد : الدروز ، ص ٣٥ ·

(٢) حنـــا أبى راشـــد : الدروز ، ص ٣٥ ـ ص ٣٦ ·
حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ·

(٣) محمد كامل حسين : المرجع الســابق ، ص ٢٩ ·

(٤) Hitti : op. cit. PP. 24—25

(٥) حنـــا أبى راشـــد : جبل الدروز ، ص ٤١ ·
حنـــا ابى راشـــد : جبل الدروز ، ص ٣٢ ـ ص ٣٣ ·

والدروز يكفرون المسلمين عامة ، ويسمونهم الكفار أو المشركين ، فى الوقت الذى يطلقون على أنفسهم الموحدين • غير ان المسلمين يرون ان الطائفة الدرزية « أشد كفرا ونفاقا من النصيرية » ، كما يرى ابن تيمية أن « قتالهم وقتال النصيرية أولى من قتال الأرمن ، لأنهم عدو فى دار السلام (١) • وعلى الرغم من ذلك ، فقد حارب الدروز خلال الحروب الصليبية الى جانب المسلمين ضد الفرنجة ، فابان الحروب الصليبية كانت اقطاعات الدروز فى لبنان فى يد اسرتين : التنوخيين والأرسلانيين ، اما وادى التيم وحوران فكان اقطاع الدروز فى يد بنى شهاب ، وكان الصليبيون يعملون لانشاء دولة لاتينية على ساحل البحر المتوسط تتسع فى الشمال وتضيق حتى جبل الدروز ، فكان على الدروز أن يدافعوا عن بلادهم لاسيما ان المسلمين طلبوا اليهم العمل على سلامة الساحل (٢) • ويرى البعض أن ثمة احتمال فى أن الدروز تأثروا فى نظمهم وتعاليمهم بفرسان الداوية (٣) •

وقد عاشت طائفة الدروز ـ ولازالت ـ على ماتنتجه الأرض من محاصيل زراعية ، فالدروز لايميلون الالزراعة ، ولم تجذب التجارة والصناعة انتباههم، ومما يدل على ذلك أن قوائم التجار فى حلب ودمشق وبيروت وصيدا ، لاتجد من بينها اسما درزيا واحدا ، والنظام السائد فى المجتمع الدرزى هو النظام الاقطاعى الذى كانوا عليه منذ عدة قرون • ومن تقاليد الدروز انـــه لايجوز عندهم الجمع بين امرأتين ، فان لم يطلق الدرزى التى عنده ، لايمكنه التزوج بغيرها ، كما ان المرأة لاترث شيئا من دار أبيها (٤) •

٣ ـ النصـــيرية :

اذا نظرنا الى خريطة لبنان من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، الفيناه يتكون من سلسلة من السهول الساحليـــة الصغيرة فى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٤٨ ـ ص ٢٤٩ •

(٢) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ١٠

(٣) Hitti : op. cit. P. 13

(٤) Hitti : op. cit. P. 5

محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٩ •

حنا ابى راشد : جبل الدروز ، ص ٤٤ •

الغرب ، ثم سلسلة من الجبال ، ثم الجبال ، ثم سهل البقاع الذى يكون منبسطا متسعا من الارض تحضنه سلسلة لبنان الغربية من جهة الغرب ، وسلسلة لبنان الشرقية (أو انتيليبان) من الجهة الشرقية • ومن الطبيعى ان تظهر قوة الحركات الانفصالية ، وتزداد وضوحا فى المناطق الجبلية بالشام، على سائر الجهات الزراعية السهلة والمدن • ولم تكن جبال لبنان موطنا للموارنة والدروز فقط ، ولكنها كانت أيضا موطنا لظهور فرقة متطرفة منبثقة من المذهب الشيعى ، وهى طائفة النصيرية • وكانت تلك الطائفة تقيم فى شمال الشام ، وموطن أتباعها جبل النصيرية (أو الانصارية) ، وهو جزء من لبنان ، وتمتد بلاد النصيرية شرقا الى سهل حماه وحمص وحلب ، وشمالا الى ما وراء انطاكية على حدود بلاد الأناضول (١) • ومن المرجح أن طائفة النصيرية أطلق عليها ذلك الاسم نسبة الى الفقيه الشافعى محمد بن نصير المتوفى عام ٨٧٣ م (٢٦٠ هـ) ، وكان من اتباع الحسن العسكرى الامام الحادى عشر عند طائفة الامامية الاثنا عشرية (٢) • واقدم ذكر للطائفة النصيرية جاء فى كتابات حمزة بن على وغيره من كتاب الرسائل والمواعظ الدرزية (٣) • وثمة تفسير آخر لايزال مألوفا عند السنيين المجاورين للنصيرية ، ولكن هذا التفسير يدخل فى نطاق الاشتقاق المتداول لهذا الاسم ، فيجعله ذا صلة بلفظ نصرانى أو نصارى ، مما يقرب الى الذهن ان النصيرية لايزالون يحتفظون ببعض تقاليد أو طقوس دينية خاصة ، منها احتفالهم ببعض الاعياد المسيحية ، مثل عيد الميلاد وعيد القيامة ، ويعتبرونهما من الأعياد الكبرى ، كما أن البعض منهم يحمل اسماء مسيحية الاصل (٤) • ويرى البعض أن سلسلة جبال النصيرية يتميز اهلها بالشكل الأشقر اللون ، وهو كثير فى العلويين ، مما يدعو الى التفكير الى انهم من أصل آرى ، أو انهم نتيجة الاتصال الذى حدث من قبل بين السكان مع سكان امارة انطاكية النورماندية (٥) •

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١٠ •

(٢) حسن ابرايهم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٥ •

(٣) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٢٢ •

(٤) حسن ابراهيم : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٥ •

(٥) Les Guides Bleus, P. XXXVIII

وتحتفظ طائفة النصيرية باسرار معتقداتها ، وتمنعه عن الناس ، وليس لأحـــد من أبنـــاء الطائفة أن يذيع ما لقن من أســـرار معتقداتهم ، وان اقتضى الامر ضرب عنقه ، وقد جرب هذا كثيرا (١) • وماتزال تحتفظ ديانتهم بمعالم واضحة ، تنبىء عن معتقداتهم التى هى مزيج من عناصر غيـــر متجانسة تماما ، تقوم على اساس نظام دينى يتصـــل بعبادة النجـــوم والكواكب (٢) • ولهذا فانهم يزعمون أن السحاب مسكن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واذا مر بهم السحاب قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن ، ويقولون ان الرعد صوته ، والبرق ضحكه ، وهم من أجل ذلك يعظمـــون السحاب (٣) ويبدو أن حسين بن احمد الخشبى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، هو الذى وضع عقائد النصيرية ، واتباعـــه يفدون لزيارة ضريحه بالقرب من حلب ، ويولون هذا الضريح ما يليق به من الاحترام والاكبار ، ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقق (بفتح الباء والقاف الاولى وسكون الراء) (٤) •

ويقوم مذهب النصيرية على مبدأ تاليه على بن أبى طالب مغالاة فيه (٥)، ولذلك أطلق على النصيرية أسم « العلوية » اى الذين يعبدون عليا ، منـــذ الانتداب الفرنسى فى ديارهم بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤–١٩١٨م) (٦)، ويدعى النصيرية أن سلمان الفارسى رسول على بن ابى طالب ، ويميلـــون (يحبون) عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على ، زاعمين انـــه « خلص اللاهوت من الناسوت » ، ويخطئون من يلعنه (٧) • ويرى النصيرية أن الخلفاء الثلاثة الصديق وعمر وعثمان تعدوا على على بن أبى طالب ، ومنعوه حقه من الخلافة ، كما تعدى قابيل على أخيه هابيل ، وكما اعتدى النمرود على

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ •
(٢) حسن ابراهيم : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ ـ ص ٢٦٥ •
(٣) صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ •
(٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ •
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٢ •
صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٤٩ •
(٦) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧ •
(٧) صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ •

الخليل عليه السلام ، وكما يقوم كل فرعون من الفراعنة على نبى من الأنبياء عليهم السلام (١) ٠

ويؤمن النصيرية بمبدأ التجسد ، ويدور حول هذا التجسد ثلاثة اسماء تكون تثليثا شبيها بتثليث النصارى ، وهذه الاسماء تتمتع بالوحدانية فى ثلاثة هم : على بن أبى طالب ويرمزون له بالمعنى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ويرمزون اليه بالاسم ، وسلمان الفارسى ويرمزون اليه بالباب ، وعلى بن ابى طالب عند النصيرية هو الكائن الاسمى ، والنور المشع الذى ينبعث عن فيضه محمد صلى الله عليه وسلم وسلمان الفارسى (٢) ٠

وتتألف طائفة النصيرية من قبائل يقوم بينها تحالف ، كالكلبية والخياطين والحدادين ، وبعض العشائر اليمنية التى ارتحلت شمالا قبل الاسلام ، ثم اختلطوا مع الشماليين كالأراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التى اختلطت قليلا أو كثيرا باللغة الأرامية ، التى لاتزال آثارها بادية فى بعض اللهجات العربية ، وفى أسماء الاشخاص والقرى والانهار (٣)

وتاريخ النصيرية عبارة عن حروب دائمة بينهم وبين جيرانهم ، بسبب الاضطهادات التى تعرضوا لها ، باعتبارهم ملحدين أو وثنيين ، الامر الذى اثار شعوب جمهور المسلمين (ومنهم الشيعيون المعتدلون) ضد هؤلاء النصيرية ، الذين ظهروا فى نظر المسلمين زنادقة مغالين ٠ والبعض من المؤرخين صورهم بأنهم « طائفة ملعونة مرذولة مجوسية المعتقد » (٤) ٠

ولم يفعل النصيرية كما فعل الموارنة ، الذين انضموا الى صفوف الصليبيين وحاربوا الى جانبهم ، ولكننا لانعرف عن النصيرية شيء يذكر سوى ان عددا كبيرا منهم لقى مصرعه على يد الفرنج (٥) ٠

---

(١) نفس المكان ٠

(٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧ ٠

(٣) نفس المكان ٠

(٤) القشقندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ ٠

(٥) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ٠

أما نظام النصيرية الاجتماعى والدينى ، فهو من النوع الذى يتميز بالطبقية ، وهم من الباطنية ، أى الجماعة التى تقول بان للنصوص الدينية معنى غير المعنى الظاهر أو المعنى الحرفى (١) • ويقال أن طائفة النصيرية لاتحرم البنات ولا الأخوات ولا الامهات (٢) • ويقيم الآن نحو ثلاثمائة ألف من أتباع هذا المذهب ، معظمهم من الفلاحين فى شمال ووسط بلاد الشام ، يعيشون فى قراهم الجبلية حتى قيليقية التركية ، واحتفظوا بمعظم اساليب معيشتهم وتقاليدهم التى درجوا عليها منذ العصور الوسطى ، وهم يمتنعون عن أكل لحم الجمل والأرنب وثعبان الماء والسمك الذى لاقشر له (٣) • وحتى العصر الحديث ، عاش النصيرية فى الجبل المعروف باسمهم شمال اللاذقية ، لايعرفون المدنية ، بهم ميل الى الفوضى ، ويصرفون معظم اوقاتهم بقطع السبيل ونهب القرى ، والقاء الفتن فى البلاد ، متكاتفين ، منضمين فى عصبة واحدة (٤) • وتعظم طائفة النصيرية الخمر ، ونتيجة لذلك عظموا شجرة العنب أصل الخمر ، وحرموا قلعها أو اجتثاب أصولها (٥) •

وثمة فريق من النصيرية ، هم الكسروانيون ، ويبدو انهم وقفوا من المماليك موقفا عدائيا ،لاسيما خلال الصراع بين المماليك والصليبيين بالشام، من ذلك ما حدث خلال حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس عام ١٢٨٩ م ، اذ خف الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع امير طرابلس • وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا فى كسر شوكتهم ، وعندما استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا . لجأ بعض الصليبيين الى جبل كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر الأشرف خليل بارسال حملة فى مستهل عام ١٢٩٢ م ، ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالعسكر المماليكى فى تلك الواقعة . الأمر الذى زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم (٦) •

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٢٢ •
(٢) صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ •
(٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ •
(٤) جورجى ينى : تاريخ سوريا ، ص ٣٥٤ •
(٥) صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ •
(٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ •

وعلى أى حال ، فان المجتمع الاسلامى ببلاد الشام على زمن الحروب الصليبية ـ كما رأينا ـ كان متنوعا من ناحية السلالات العرقية ، والعقائد الدينية بشكل لانجده فى أى بلد عربى آخر • فالى جانب القبائل العربية التى وفدت الى الشام مع موجة الفتح الاسلامى وقبله ، وفى كنف الدولة العربية الاسلامية بالشام ، عاش الأتراك والتركمان والاكراد •

أما من ناحية العقائد الدينية ، فمن الملاحظ ـ كما قلنا ـ أن السنة والشيعة والفرق العديدة الأخرى اقتسمت بلاد الشام من الناحية المذهبية • فعلى سبيل المثال ، نجد أن الشيعة تركزوا فى طرابلس وصور ، فيروى ناصر خسرو أن معظم سكان صور من الشيعة ، وكل سكان طرابلس شيعة (١) وفى حلب انتشر بها مذهب الشيعة عندما اضـــحى للفاطميين نفوذا فى الشام (٢) • وطالما قامت الصراعات بين السنة والشيعة فى حلب ، وضاقت المصادر التاريخية بذكر حوادث عن تلك الصراعات • ومن الفرق التى تفرعت من الشيعة ، وتوزعت فى انحاء الشام : الدروز فى جنوبى لبنان ، والنصيرية فى جبال سوريا الشمالية ، والاسماعيلية (الحشاشون) الى الشرق من مواطن النصيرية (٣) •

ولا ريب أن تلك الفرق ، أوجدت وضعا قلقا مزمنا ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، فهى لم تنصهر فى بوتقة واحدة بمرور الزمن ، بل ظلت كما هى ، وسبب ذلك السمة أو الظاهرة الجغرافية التى تسـود الشام ، فتضاريسه من جبال وسهول واودية متقطعة ، ساعدت على قيام طوائف دينية منعزلة مستقلة ، الامر الذى اضر بالبلاد حتى وقتنا الحالى •

هذا بالنسبة للمجتمع الاسلامى الذى سكن أرض الشام، وكون أجناسا ومذاهب متباينة • أما المجتمع المسيحى بالشام فسنستعرضه فى الفصل القـــادم •

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١٣ ـ ص ١٥ •

(٢) بيشو : تاريخ حلب ، ص ٤٣ •

(٣) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ـ ص ٢٢٦ •